من تراب الطريق (٣٩٤) اللغة والحياة ! (*)

يبدو أن الوظيفة الأولى والأخيرة لأية لغة ، هى أن تنقل ألفاظها وتراكيبها المصطلح عليها معانى الأفعال والأشياء حسب سياقها ـ إلى من يستعملونها عادة أو أحيانًا .. وليس يلزم أن يكون المعين المتواضع عليه ـ صحيحًا فى ذاته ، أو موجودًا فى الواقع .. إذ يكفى أن يكون كذلك فى المحيط .. فإن كانت الألفاظ والتراكيب لا تحمل معنًى محددًا معينًا معهودًا عند الناس ، فإنها تكون تجميعًا لأحرف وأصوات من أجل أغراض أخر غير غرض النقل والبيان والتعريف الذى هو عمل اللغة .. إذ لا سبيل مهما تكن الألفاظ والتراكيب فى الأصل منتسبة إلى اللغة ـ لا سبيل لأن تكون صالحة لضبط وتحديد أى معنى لغوى ، لا عند من يستعملها ، ولا عند من يخاطب بلسان هذه اللغة .. وذلك لتخلف وجود شىء فى حياة الناس العادية يمكن أن تتحدث عنه بالفعل تلك الألفاظ والتراكيب .

ولكن الآدميين عرفوا من قديم الحيل البلاغية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية وغيرها لتقوية إحساس السامع أو القارئ بمراد المتحدث به ، وترحيب السامع أو القارئ العادى بما يستحسنه من تلك

(*) المال٢١/ ١/ ٢٠١٠

المحسنات البيانية فى النثر أو فى الشعر ، التى جرى التنافس عليها فى عصور غير قليلة .

كذلك استعملوا ألفاظ اللغة وتراكيبها فى عرض وتسجيل الفروض الفكرية الصرف والنظريات المبنية عليها .. وقد أقام الحكماء والفلاسفة المذاهب والمدارس ، وتابعهم تلاميذهم ، فى الاشتغال بأصل العالم والطبيعة والكون والفساد والجوهر والعرض والأزلى والفانى والكامل والناقص إلى غير ذلك مما لا سبيل إلى مواقعته وإمكان ضبط صحة النظرية فيه .. وذلك لأن استعمال اللغة رسم محض الأفكار والتصورات والفروض والنظريات والمذاهب المتعلقة بها ينطوي دائما على تجاوز لوظيفتها ، وهو يعطى كل مفكر حرية التصرف فى ألفاظها وتراكيبها .. وابتداع المسميات والاصطلاحات والفروق والأصول والفروع ـ بغير مقيد . ولم يعترض سواد الناس على هذه المجازفات ، لأنها ابتداء وانتهاء لم تمس مصالحهم مباشرة ، ولم تزد أو تنقص حياتهم شيئًا واعتبروها من خصائص أهل الحكمة والعلم وحدهم يداولونها فيما بينهم فقط ولا شأن لها بعموم الخلق .

وللحد من الخلط والخبط والاضطراب ، وضع فولتير المعجم الفلسفي ، ووضع بعده العديد من المعاجم الفلسفية فى فرنسا وغيرها ، وفعل ذلك أستاذ الفلسفة المصرية الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوى ، فصنف بمفرده معجما كبيرًا للفلسفة .. على أن هذا العمل ظل مقصورًا على الفلاسفة والأساتذة الكبار ، ولم يتحرك خلق الله العاديون لوضع

شىء من ذلك إيجابًا أو سلبًا .. وقد وضعت فى أيامنا معاجم متنوعة للعلوم والفنون والتجارة والقانون والسياسة ـ لضبط مصطلحات هذه الفروع لدى المشتغلين بها أو القارئين لكتبها ومؤلفاتها ونشراتها .

ومن النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، بدأت عملية جهرة الثقافة والمعرفة فى الانتشار ، وبدأت أعداد غير قليلة تلوك ألسنتها العديد من مصطلحات وعبارات الفلسفة والعلوم والفنون والقانون والصناعة والسياسة والآداب والمسرح وغيرها .. ونتيجة انتشار التعليم العام والخاص والثورة الصناعية والتطور الهائل فى وسائل الاتصال والنقل ـ نتيجة لذلك انتشرت الصحف والصحافة فى كل مكان ، وكثرت وازدهرت دور الطباعة والنشر ، والإقليمية والدولية ، وأصبح عميلها الرئيسى الفعلى من سواد الناس العاديين ، وليس فقط من المتخصصين وأشباه المتخصصين .. ودخلت مع هذا التغيير الجسيم ـ عبارات ومصطلحات الفلسفة والعلوم والفنون وغيرها ، بغير ضابط أو رابط فى اللغة الجارية ، وأفسدت ما فى لغة الآدمى العادى من فطنة ويقظة عبر مرور الأجيال وتتابع الحظوظ المختلفة .. واعتاد الجمهور هذا التجديد سماعا واستعمالا ـ دون اعتراض أو احتياط . بل وبنى على أساسها صيغ مذاهبه السياسية والاجتماعية ، ورددتها مراكز وفروع الأحزاب والطوائف والجماعات والجمعيات ، وقامت وقعدت بها صحافتها ونشراتها وصراعاتها وتطاحنها على مقاعد المجالس النيابية وكراسى السلطة والحكم !

والمهم أن دليل ثقافة المتحدث أو الكاتب فى بلاد الغرب والبلاد التى

تأثرت بها ـ يأتى أو يستعمل فى معالجة ما يتصدى لمعالجته من شئون الدنيا ـ بوفرة من تلك العبارات والمصطلحات ، ويجعلها من المحاور الرئيسية لمنطقه الأنيق المزود بالأسانيد .. غير مبال على الإطلاق بالإبهام والاضطراب اللذين تحملهما تلك الإضافات الفارغة ـ إلى الموضوع المعين الذى يحاول معالجته . وقد بات هذا التقليد لدى جمهور المستنيرين كما يحلو لهم أن يدعوا أنفسهم ـ بات نوعا من أفيون اللغة السائدة ، لا سبيل إلى مقاومة الإدمان عليه .. وهذا المخدر الخطير يزداد انتشارا بين جمهور القارئين والكاتبين فى بلاد الشرق الأدنى .. تلمسه واضحًا فى أحاديثهم ومقالاتهم وكتبهم ، وتراه واضحًا فيما يردده عن هؤلاء ـ الناقلون عنهم .. لا تشهد عين العاقل العادى الطبيعى لديهم فى أية مشكلة حقيقية فعلية تواجههم بكل صرامتها وصراحتها ـ إلاّ الحرص الشديد من جانبهم على إبعاد ما هو جوهرى ، بل ما هو صُلب وعصَب المشكلة إلى أقصى حد ، مهما يكن عنيفًا حادًا أو بشعًا مفزعًا .. وتقديم ومحاولة تطبيق المصطلحات الباهتة الناقصة المبهمة التى لم ولن تتوافر لشرائط انطباقها أو تطبيقها فى أى وقت .. لأن أية مشكلة فعلية منشؤها دائما أو غالبا واقع قديم وواقع عارض ، ولا تعالج إلاّ بواقع فعلى جاهز لمواجهتها ، إما بإطفاء واقعها العارض الذى هو الشعلة التى ألهبتها ، وإما بعلاج واقعها القديم الذى هو بيت الداء ، وإما محاولة علاجها بالصيغ والاصطلاحات والفصاحات والتمنيات والمأمولات .. فحيلة العاجز لستر عجزه وإخلاء ذمته من تلك المشكلة وأطرافها ومما تنتهى إليه إذا لم نلق العلاج الناجع المجدى ممن يملكه ، ومن هو مستعد لتقديمه فى حينه !